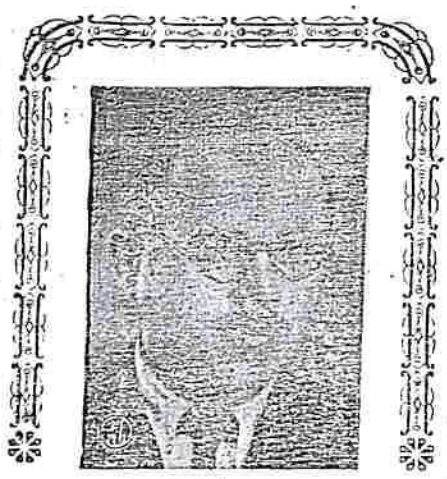

بقلم الاستاذ احمد صدقي

من محبسه في القادسية ويا أطل لهول ما رأى . السيوف تتعانق والرماح تتشابك ودماء العربيين تهرق في الصعيد ، والصناديد من فتيان عدنان تتهافت على الشهادة تهافت الفراش على وذيلة السراج الجواغير بالرهج والقتام والصفاح تثير في جوانبه البروق وزمجرة الابطال من بني قومه تروي قصص الرعود فتمخض السحب المثقلة وتلقي باحمالها ولكنه يجمع تقذفه الاوردة وعلق تمجه القلوب . انها يعرب تبني صرح مجدها وتخطب الرفيعة والعلياء فتهرها غالي دمائها والمهج انها مضر الحمراء تستنقذ بقية ابنائها من براثن الفرس الحمراء . وتحرز قطر اعز بزاعليها ، عاث فيه اعداؤها فسادا وساموا ابناءه وهم اخوانهم الادنون سوء العذاب . انها فتية من يعرب تجاهد في اعلاء دين الله ونشر السلام والحرية والعدل في هذا الجزء من الهلال الخصيب في العراق بينما يجاهد فريق آخر منهم للغاية نفسها في الجزء الاخر من الهلال الخصيب في الشام . وبعبارة اوضح انها الامة العربية جامعة امرها موحدة كلمتها تقضي على اطماع الشرق والغرب معا وعلى تكالبهما على اقطارها وابنائها . وعلى بريق الالسنة في ذلك الظلام الحالك رأى الاعداء متفوقين وسمعهم ينتمون ورأى قومه يخيم عليهم السكون والوجوم . يعكره وقعات على البيض والبلب كانها مطارق القصارين تهوى بها ايد حداد وسواعد شداد . وسمع القائد العربي يركض جواده ملء فروجه ويصيح بجنوده ملء شدقيه .

يا ابطال التوحيد يا حماة الوقائع يا فرسان الليل يا سهام الاعداء يا جمرات الحروب اعيرونا جماجمكم ساعة فالظفر لمن صبر وهذا يوم له ما بعده فيه تبلى السرائر . غضوا الابصار وعضوا على النواجذ وهبوا انفسكم لله فانتم بعين الله . رأى بعينه وسمع باذنه فيا لهول ما رأى ويا لهول ما سمع واخذ يتقرى مداخل حتفه فاذا كله ثورة تتأجج واذا كله اتون يضطرم واذا كله بركان يقذف بالحمم . واذا الهم العربي يفور ويغلي غليان المرجل واذا بالهاتف يهيب به مؤنبا اين انت يا عبد الله عن هذا اليوم الرهيب في حياة العروبة لاذا ولدتك امك وغذتك بلبان المروءة والشهامة ان غبت عن هذه الساعة الفاصلة في التاريخ القومي . اتغتفر لك البطولة ان يعاني اخوانك ما يعانون على مرأى وسمع منك . ولكنه سجين مثقل بالاغلال قد عضت ساقيه القيود واخذت مكانها من ساعديه . لقد كان نصيبه السجن الرهيب لولعه بتلك اللعينة القاتلة ام الشرور والآثام معبودة الاعشى من المتقدمين والحسن بن هاني من المتأخرين فالأول يعبدها ويمجدها بقوله :

امدح الكأس ومن اعملها ... واهج قوما قتلونا بالعطش
انما الخمر ربيع باكر ... فاذا ما غاب عنا لم نعش

والثاني يقدسها ويصلي اليها بقوله :

اثن على الخمر بالاثنا
وسمها احسن اسمائها
دارت فاحيت غير مذمومة
نفوس حراها وانضائها

لقدهام بها وجرى حبها في دمه وعروقه وهو المسلم المجاهد الذي خاض الغمرات في كثير من وقائع الاسلام . لقد صلى وصام وزكى وطاف في البيت الحرام ، وجاهد ورابط ، وجانب الفحش والميسر والميتة والدم ، وائتمر باوامر الاسلام واجتنب نواهيه ، إلا هذه اللعينة البغيضة التي لم يستطع ان يروض نفسه على التحرر من قيدها الثقيل وكيف يهجرها وهو القائل فيها :

اذا مت فادفني الى جنب كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فانني ... اخاف اذا ما مت ان لا اذوقها

عبد الله بهه مبيت

خاهر ظلم الذئب وبطل

لم ينصف التاريخ

واذا كانت هذه الفتاة قد ملكت عليه لبه فما لهذه الشريعة الجديدة لم تقبله على علاته . ولم تدعه وشأنه في معاقرتها والادمان عليها وهي التي جاء بها الرسول الاعظم مبنية على السهل واليسر . ما بالها تنبذه وتعاقبه على ان شرب كاسا ليس في تناولها ما يعود بالضرر على احد ما بالها تجده وتفرده في هذا السجن المظلم لهذا السبب وحده . اليس من حق من نبذه المجتمع لسبب تافه كهذا الا يأبه لما يجري في ساحات القتال وان يريح جنبيه في طوايا السجن متمثلا بقول الشاعر :

سيذكرني قومي اذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ولكنها العزة العربية والنخوة العدنانية نخوة الأبي الشجاع الذي يتناسى كل شيء ويضحي بكل شيء في سبيل المصلحة العامة . نخوة البطل الحر الذي لا يتأخر عن القيام بالواجب مهما تعددت الحوائل فقد اخذ يتململ في محبسه تململ السليم وكانه يقول :

اضاعوني واي فتى اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم مشى الى القائد وهو يرسف بقيوده ورجاه الافراج عنه لينال شرف المساهمة في هذا النضال الجبار فكان الجواب سلبياً وليته سلبي فحسب ان فيه كثيرا من العنف والقسوة وان فيه كثيراً من العذل والامتهان (لا يحق للائمة والعصاة ان يفوزوا بشرف هذا الجهاد المقدس لأنه وقف على المؤمنين التائبين العابدين الركع السجود اولئك الذين اشترى الله منهم انفسهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقاً في التوراة والانجيل) لله ما اشد وقع هذا الجواب على قلب البطل وان يكن حقا فبعض الحق مر لا تسيغه طباع الاباة الاحرار . عاد يتمثر باذيال الفشل لكن ذلك لم يفت في عضده حين خطر له ان يستشفع إلى القائد بزوجته فراح يتوسل اليها وقد لاح له بارق من امل لكنه لم يلبث ان انطفا شعاعه حين ردت عليه السيدة بقولها: ليس هذا من شان النساء . عند ذلك شمر عمارة الياس واخذ لسانه يصور على غير عمد منه هذا الياس المرير بهذه الابيات الرائعة :

كفى حزنا ان ترتدي الخيل بالقنا ... واترك مشدودا علي وثائقي
اذا قمت عناني الحديد وغلقت ... مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير واخوة ... فقد تركوني واحداً لا اخاليا
وقد شف جسمي انني كل شارق ... اعالج كبلا مصمتا قد برانيا
فلله دري يوم اترك موثقا ... وتذهل عني اسرتي ورجالها
حبيساً عن الحرب العوان وقد بدت ... واعمال غيري يوم ذاك العواليا
ولله عهد لا اخيس بعهده ... لئن فرجت ان لا ازور الحوانيا

يأس واي يأس بشيع في جوانبه ، ويتقلقل في جميع مداخله . واذا كان من اليأس ما يودي بصاحبه ، او يتركه صريع الآلام فأي نوع منه هذا الذي استولى على البطل الشجاع حين يرى معركة تدور رحاها فتنتهب فيها النفوس وتختلس المهج وهو يرقبها عن كثب بعد ان حيل بينه وبينها كأن لم يكن له اسوة بلداته واترابه انه يأس قاتل خليق ان يطوح بصاحبه واخيرا تقدم من سلمى زوجة القائد واخذ يستدر عطفها قائلا : يا بنت الكرام اطلقي عن ساعدي القيود ومني علي بسلاحي واعيريني فرس سعد زوجك ، كي اقاتل هذه الليلة وانا اعاهدك على الرجوع الى السجن والقيود في آخر الليلة ان بقيت حيا.. وكانت لهجته تدل على العزم والصدق والاخلاص وتوسلاته تنم عن ألم عميق حقاً انها توسلات تبعث على الاعجاب وتذكي في النفس نيران الحماسة . فقالت له السيدة : يا عبد الله فيم حبسك هذا الرجل ؟ فحدثها . فروت قليلا قالت: اما الحرية فسأمن عليك بها الليلة اعتمادا على عهدك واما فرس زوجي فليس لي من امرها شيء . ثم حلت عنه القيود . فأسرع الى سلاحه ثم ركب فرس سعد وما كاد يأسرع من ان توسط ساحة القتال ولعب بسلاجه بين الصفين فبهر الفريقين ثم انقض على الاعداء كالصاعقة واخذ يصليهم ناراً حامية بضربه وطعنه .

فقتل الاقران وجندل الفرسان وصبغ الارض به ما شاء الشجعان ثم عاد بعد ان تحاجز الفريقان ، وكأنه يميس بحلة الارجوان فقصد محبسه وقد شفى الغليل وأرضى الجليل وهزته نشوة الظفر فانشأ يقول :

لقد علمت ثقيف غير فخر ... بانا نحن اكرمهم سيوفا
واكثرهم دروعا سابغات ... واصبرهم اذا كرهوا الوقوفا
وانا رفدهم في كل يوم ... فان جحدوا فسل بهم عريفا
وليلة قادس لم يشعروا بي ... ولم اكره لمخرجي الزحوفا

فان احبس فقد عرفوا بلائي . وان اطلق اجرعهم حتوفا

وبينما كان يعيد القيود الى رجليه جاء سعد وحدثته سلمى بالامر. فامتلأ اعجابا وسرورا وقال له ارفع عن رجليك القيود فو الله لا احبس ولا اضرب اليوم رجلا ابلى احسن بلاء في اعدائه . فاجاب عبدالله : قد كنت اشربها والحد على ظهري اما الآن فوالله لاشربها ابدا .

ان كانت الخمر قد عزت وقد منعت

وحال من دونها الاسلام والحرج

فقد اباكرها صرفا وامزجها ريا واطرب احيانا وامتزج

وقد يقوم علي رأسي منعمة فيها اذا رفعت من صوتها غنج

ترفع الصوت احيانا وتخفضه كما يطن ذباب الروضة المزج

وفي الصباح اخذ البطل مكانه بين الصفوف وذاك مكان يحسده عليه اكابر الفرسان فقام بما يمليه الواجب احسن قيام واستجاب لنداء ضميره خير استجابة واقلع عن تلك العادة المشؤومة فهجر تلك الملعونة البغيضة التي كانت سبّبت في امتهانه وتقييده . ولكنه اقلاع بملء ارادته ، وكانت توبته نصوحا لايشوبها رياء او دجل . وها هو ذا يصف شعوره نحوها بقوله

رأيت الخمر صالحة وفيها مساوىء تهلك الرجل الحليما

فلا والله اشربها حياتي ولا اسقي بها أبداً نديما

ثم ها هو ذا يمثل في قافيته الرائعة اصدق مثال للفتى العربي في شجاعته وجوده وابائه وسماحه وكرم اخلاقه وحفظه للسر .

لاتسألي الناس عن مالي وكثرته وسائلي الناس مافعلي وماخلقي

اعطي السنان غداة الروع حصته

وعامل الرمح ارويه من العلق

واطعن الطعنة النجلاء عن عرض

واحفظ السر فيه ضربة العنق

عف المطالب عما لست نائله فان ظفرت شديد الحقد والحنق

وقد اجود وما مالي بذي فتح (١) وقد اكر وراء المحجر البرق (٢)

والقوم اعلم اني من سراتهم اذا سما بصر الرعديدة الشفق

قد يعسر المرء حينا وهو ذو كرم وقد يثوب سوام الماجز الحمق

سيكثر المال يوما بعد قلته ويكتسي العود بعد اليبس بالورق

مسكين عبدالله بن حبيب (ابو محجن الثقفي) لقد كان مثالا للشهامة والبطولة ولكل مايجب ان يتصف به الفتى العربي في عصر الفتوح . ولا شك انه قال الشعر في مناسبات شتى واغراض مختلفة فكان شاعرا مطبوعا يصور مايعرض لخاطره باسلوب عذب يسحر الالباب وبيان فاتن يشف عن خاطر صفي من دمع الغمام لقد مدح ورثى ووصف وتغزل وزهد واناب وناجى فاجاد وحلق في كل ماأتى ولكن كل ذلك انطوى بانطواء حياته كما انطوى الشيء الكثير من حياة امثاله الكثيرين في ذلك العهد الزاهر بالآداب والمفاخر . ولم يبق مما نقل عنه الا الشيء النادر الذي لايطفيء أواما ولا يبل غلة . نعم لقد انطوى الشيء الكثير من آثاره وآثار امثاله الكثيرين اولئك الذين نحن بامس الحاجة الى دراسة تاريخهم والتأسي باعمالهم في عصرنا هذا لنعلم كيف بنوا لنا ذلك المجد العتيد الذي نتغنى بذكره ونفاخر بمدى سموه ورفعته . اجل لم ينقل لنا عن عبدالله الا الشيء النادر او اقل من النادر . ولعل مايثير الدهشة ويبعث على العجب ان تكون ابرز صورة في تأريخه تلك التي وصف هو بها ولوعه بالخمرة حتى اصبحت له علما . ويخيل الي ان مانقله بعض المصادر عن مدفنه ان هو الا اقصوصة نسجها خيال مبدع استمدها من تلك الابيات المشؤومة ، ومما يقوي صدق ماأحدس به اختلاف الرواية نفسها في مكان القبر . فقد روى احدهم انه مر في نواحي جرجان او اذربيجان (كذا) فرأى قبراً قد نبتت عليه ثلاثة اصول كرم قد طالت وأثمرت وهي معروشة وعليه مكتوب (هذا قبر ابي محجن) فوقف طويلا يتعجب مما اتفق له حتى صار كانه امنية بلغها حيث يقول :

اذا مت فادفني الى جنب كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني في الفلاة فانني اخاف اذا مامت ان لا اذوقها

حقا انه لمسكين . فقد ظلمه الادب ولم يوفه حقه التأريخ وكم في الامة العربية الغابرة من امثاله الكثيرين قد ظلمهم الادب ولم يوفهم حقهم التاريخ وكم في الامة العربية الحاضرة من امثاله الكثيرين قد ظلمهم الادب ولم يوفهم حقهم التاريخ فيا لظلم الادب ويا لقسوة التاريخ .

دمشق :

احمد صدوق

(١) زيادة فضل (٢) الحمى المنيع